الفصل الرابع

الآثار المعمارية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه

المسجد النبوى بالمدينة المنورة:

شهد المسجد النبوى بالمدينة تطوراً كبيراً من الناحية المعمارية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م) كما ازدان المسجد بالنقوش فى عهده رضى الله عنه، ويعد نقش المسجد هنا بمثابة المرة الأولى فى تاريخ العمارة الإسلامية، حيث خلت كافة العمائر الدينية والمدنية التى شيدت قبل زيادة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه من الزخارف، لذا يعد عصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه مرحلة انتقالية هامة فى تاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة، والعمارة الإسلامية بصفة خاصة، وهى المرحلة التى اتسمت فيها العمارة الإسلامية بالتطور من الناحية المعمارية والتأنق من الناحية الزخرفية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الإسلامية غدت مواكبة ومضاهية للحضارات الأخرى الرومانية والبيزنطية والساسانية، وتعد هذه المرحلة اللبنة الأولى فى تطور وازدهار صرح الحضارة الإسلامية خلال عصورها التالية.

نقل السمهودى «. . . أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد، فكره الناس ذلك، وأحبوا أن يدعه على هيئته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى «مسجداً لله» بنى الله له فى الجنة مثله»[١].

وجاء فى صحيح البخارى «ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج»[٢]. (شكل ٣٣).

وأمدنا الزركشى فى إعلام الساجد بذرع المسجد فقال: «قال أهل السير: جعل عثمان طول المسجد مائة وستين ذراعا، وعرضه مائة وخمسين، وجعل أبوابه ستة كما كانت فى زمن عمر. .»[٣]. كذلك أمدنا ابن النجار بنص هام يتعلق بهذه

الزيادة حيث أورد «وكان عمله فى أول ربيع الأول سنة تسع وعشرين وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ثلاثين، فكان عمله عشرة أشهر.. وبناه بالحجارة المنقوشة والقصة وخشب النخل والجريد، وبيضه بالقصة، وقدر زيد بن ثابت أساطينه فجعلها على قدر النخل، وجعل فيها طاقات مما يلى المشرق والمغرب، وبنى المقصورة بلبن، وجعل فيها كوة ينظر الناس منها إلى الإمام، وكان يصلى فيها خوفا من الذى أصاب عمر، وكانت صغيرة، وجعل أعمدة المسجد حجارة منقوشة فيها أعمدة الحديد وفيها الرصاص وسقفه بالساج فجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه على ما كان على عهد رسول الله ﷺ باب عاتكة والباب الذى يليه، وباب مروان، والباب الذى يقال له باب النبى ﷺ، وبابين فى مؤخره»(٤).

كما أمدنا المؤرخ يحيى بن الحسين المتوفى فى عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م بنص فى غاية الأهمية يتعلق بعمارة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسجد النبوى، حيث قال «زاد عثمان فى مسجد رسول الله ﷺ الزيادة العظيمة وجعل طوله مائة وستين ذراعا وعرضه مائة وخمسين ذراعا، وحملت له الحجارة من بطن نخل، ووضع فى عمده الرصاص، وجعل أبوابه ستة على ما كانت عليه فى عهد عمر، ومن مآثر عثمان بناء المنارات للأذان، وكانت فى زمنه مربعة الشكل..(٥).

ويعد الخليفة عثمان أول من عمل المقصورة، وكانت تشتمل على كوى ينظر الناس منها إلى الإمام، وكانت من اللبن، واستعمل عليها السائب بن حباب، وكان رزقه دينارين فى كل شهر، قال المقريزى «وذكر عمر بن شيبة فى تاريخ المدينة أن أول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكان فيها كوى تنظر الناس منها إلى الإمام وأن عمر بن عبد العزيز عملها بالساج»(٦).

فيما يتعلق بزيادة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد كانت فى سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م قال السمهودى «وكان أول عمله فى شهر ربيع الأول من سنة تسع

وعشرين، وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ثلاثين، فكان عمله عشرة أشهر»[٧]. ، وتمثلت هذه العمارة فى هدم المسجد بالكامل ثم عمارته، وهو الأمر الذى يتضح جليًا فى نص البخارى، «ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة»، أما فيما يتعلق بجدران المسجد، فقد جاءت بالحجارة المنقوشة والقصة، وهى السمة الأولى التى تقابلنا فى عمارة المسجد فى العالم الإسلامى، حيث جاءت جدران مساجد المدينة المنورة واليمن والبصرة والكوفة والفسطاط خالية من الزخارف، كما لم تشر المصادر التاريخية التى بين أيدينا إلى استخدام القصة فى هذه الجدران، وهو الأمر الذى يمثل إضافة جديدة من قبل المعمار المسلم فى تاريخ العمارة الإسلامية قال السمهودى «فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه، وكان رجلا يصوم الدهر ويصلى الليل، وكان لا يخرج من المسجد، وأمر بالقصة المنخولة تعمل ببطن نخل»[٨]، ونقل السمهودى أيضًا «وعن عبد الرحمن بن سفينة قال: رأيت القصة تحمل إلى عثمان وهو يبنى مسجد رسول الله ﷺ من بطن نخل، رأيته يقوم على رجليه والعمال يعملون فيه حتى تاتى الصلاة فيصلى بهم، وربما نام ثم رجع، وربما نام فى المسجد»[٩].

أما فيما يتعلق بالعمد فقد جاءت أيضًا من الحجارة المنقوشة، وقد ألفناها فى المساجد السابقة من سوارٍ من جذوع النخل، لذا فهى هنا فى زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه تتسم بسمتين جديدتين، تتمثل الأولى فى استخدام مادة الحجر لتحل محل مادة الخشب، وتتمثل الثانية فى نقش هذه الأعمدة مثل نقش أحجار الجدران، وهو الأمر الذى يؤكد أن أسلوب النقش أصبح يمثل اتجاهًا جديدًا فى الفكر الإسلامى الحضارى والمعمارى منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وصاحب كل ذلك عملية بياض المسجد بالكامل من الداخل والخارج بالقصة، وقد تقدم استخدام القصة فى الجدران مما يدل على أن المسجد اكتسب رونقًا وبهاءً رائعًا، ويحدثنا ابن النجار عن أسلوب عمل عمد المسجد بقوله «وجعل أعمدة المسجد حجارة منقوشة فيها أعمدة الحديد وفيها الرصاص وسقفه بالساج» وهو الأمر الذى يعكس تطورًا فى الفكر المعمارى الإسلامى سواء

فى أسلوب عمل العمد ورفعها بدرجة كبيرة لكى تحل محل العمد الخشبية أو تحمل السقف مباشرة بدون عقود على أوتار أو عوارض خشبية أو فى أسلوب التسقيف بالساج، مما يدل على أن العمارة خرجت من طور البساطة إلى طور التأنق والبهاء من الناحيتين المعمارية والزخرفية وقد ورد فيما يتعلق بعمد المسجد انها بنيت بالآجر لا الحجر، فقد أورد السمهودى «وروى أبو داود أيضًا... إن مسجد النبى ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل.. ثم أنها نخرت فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فبناها بجذوع النخل وبجريد النخل. ثم إنها نخرت فى خلافة عثمان رضى الله عنه فبناها بالآجر، فلم تزل ثابتة حتى الآن، هكذا رأيته فى أصول متعددة معتمدة من السنن... وفى هذا الخبر ما يقتضى أن السبب فى بناء عثمان للمسجد كون الجذوع التى هى السوارى نخرت، وأن عثمان بناها بالآجر لا الحجر، فلعل البعض كان فى زمنه مبنيًا بالآجر وهو بعيد، وما تقدم من رواية الصحيح أصح»(١٠).

أما فيما يتعلق بأبواب المسجد فهى كما كانت فى عمارة الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سواء من حيث الموقع أو العدد، حيث أقرها عثمان بن عفان رضى الله عنه، وتتفق تقريبا الروايات التى تناولت ذرع المسجد فى أثناء عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه فى هذه الزيادة، وهى «جعل طوله مائة وستين ذراعا، وعرضه مائة وخمسين ذراعا»، وما يعنينا هنا هو التطابق فى طبيعة الزيادة وذرع المسجد بين ما أورده المؤرخ يحيى بن الحسين الذى يعد من علماء اليمن فى القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى، وما ورد من روايات من قبل بعض المؤرخين الذين تناولوا هذه العمارة مثل ابن النجار فى الدرة الثمينة والزركشى فى إعلام الساجد على سبيل المثال، ويتناول المؤرخ يحيى بن الحسين فى النص الذى تقدم ذكره المنارات (المآذن) وتكوينها المعمارى فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه بقوله «ومن مآثر عثمان بناء المنارات للأذان وكانت فى زمنه مربعة الشكل»، وتكمن أهمية هذا النص فى أنه يشير إلى المنارات أو المآذن صراحة من جهة، وتكوينها المعمارى المربع من جهة أخرى،

وقد تأكد لنا مطابقة ما أورده المؤرخ يحيى بن الحسين عن عمارة المسجد النبوى فى عام ٢٩هـ/ ٦٤٩م، وما ورد فى المصادر التاريخية الأخرى لذا فإننا نثق فيما أورده عن المآذن فى تلك الفترة الهامة من تاريخ العمارة الإسلامية على الرغم من أنه لم يذكر لنا المصادر التى استقى منها معلوماته شأنه فى ذلك شأن معظم المؤرخين اليمنيين أو الذين أرخوا لبلاد اليمن.

ويدعم نص المؤرخ يحيى بن الحسين ما أورده المؤرخ المقريزى فى خططه ونصه «وذكر عن عثمان رضى الله عنه أنه أول من رزق المؤذنين»(١١). وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المئذنة أو المطمار أو الزوراء أو الصومعة(١٢) أو المنار أو المنارة أصبحت وحدة معمارية لها كيانها الخاص وتكوينها المعمارى المربع، وأن وظيفة المؤذن أصبحت من الوظائف الدينية الراتبة الهامة فى عصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ويؤكد ذلك أيضًا ما أورده الطبرى فى تاريخه ونصه فى أحداث سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م «وفى هذه السنة زاد عثمان النداء الثالث على الزوراء»(١٣)، كما أورد الشيخ عبد الحى الكتانى فى التراتيب الإدارية «فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء والزوراء قيل أنه مرتفع كالمنارة»(١٤). ثم تأتى بعد ذلك إشارة البلاذرى(١٥) عن منارة جامع البصرة التى شيدها والى العراق زياد بن أبيه خلال عمارته للمسجد وتمثل مآذن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إمتدادًا للكتلة المعمارية المربعة التى كانت تعلو المسجد النبوى منذ إنشائه، والتى تقدم ذكرها، ثم تعد أيضًا إمتدادًا للمطمار الذى تقدم ذكره فى عهد الرسول ﷺ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن ما ذهب إليه المستشرقون وفى مقدمتهم Creswell وتقدم ذكره غير صحيح على الإطلاق.

ومن المرجح أن المعمار المسلم عند تشييده المنارات فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه راعى موقعها بحيث لا تشغل مساحة من مساحات الصلاة، جاء فى إعلام الساجد فى باب غرس الشجر والنخل وحفر الآبار فى المسجد «لا يجوز الغرس فى المسجد ولا الحفر فيه، ولا أن يبنى فيه منارة، ولا أن يضرب فيه اللبنات ويضعها فى زاوية منه أو يجمع الحشيش فى موضع منه، لأن هذه

الأشياء مما يشغل موضع الصلاة، وقيل إن اتخاذ المنارة أحق لأنه يمكن الصلاة على رأسها بخلاف حفر البئر ونحوه»[١٦].

ونلحظ التطور أيضًا فى هذه العمارة فى استخدام النوافذ المرتفعة فى الجدارين الشرقى والغربى، كما ورد فى نص ابن النجار «وجعل فيها طاقات مما يلى المشرق والمغرب»، وفى استحداث المقصورة التى تقدم ذكرها بشىء من التفصيل فى نص ابن النجار، وبنى المقصورة بلبن وجعل فيها كوة ينظر الناس منها إلى الإمام، وكان يصلى فيها خوفا من الذى أصاب عمر، وكانت صغيرة، وجعل أعمدة المسجد حجارة»، وقد فرش المسجد بحصباء وادى العقيق.

مقاصير الصلاة:

تعد المقصورة التى شيدها عثمان بن عفان رضى الله عنه بالمسجد النبوى أول مقصورة فى تاريخ العمارة الإسلامية، والمقصورة لغة من قصر الشىء، يقصره قصرا أى حبسه وتجمع على مقاصير ومنه مقصور الجامع، وقد سميت المقصورة مقصورة لأنها قصرت على الإمام دون الناس(١٧).

وقد تناول محمد محمد الكحلاوى فى دراسة له مقاصير الصلاة، حيث يذكر أن المقاصير قد تنوعت وتعددت وظائفها فى العصر الإسلام، حيث خصصت مقاصير خاصة لصلاة النساء فى المساجد الجامعة، وهى غالبًا ما تقع فى مؤخرة المسجد أو فى الظلتين الجانبيتين، وكانت لها مداخل خاصة بها تفتح عليها مباشرة، ويعد هذا النوع من المقاصير أقدم عهدًا من مقصورة الإمام، وعرف العصر الإسلامى أنواعًا أخرى من المقاصير لم تكن مخصصة للصلاة، بل كانت لها وظائف أخرى ارتبطت فى مضمونها بعمارة المسجد، ومنها المقاصير الضريحية التى تحيط بتراكيب الدفن، والمقاصير العلمية، ومقاصير الخزائن، ومقاصير الكتب، ومقاصير الفقراء، ومقاصير الصوفية(١٨).

وتمثل مقاصير الصلاة كما يذكر محمد محمد الكحلاوى أهمية كبيرة فى داخل المسجد، حيث أوجدها المعمار فى مقدمة المسجد من جهة القبلة أمام المحراب فهى عبارة عن مساحة محددة تشغل جزءً من مساحة المسجد الداخلية، ومحاطة بسياج، وهى إذا وجدت فى داخل ظلة القبلة فلابد أن تكون ملاصقة لجدار القبلة من أمام المحراب، ويعتبر جدار القبلة بذلك ضلعًا من أضلاعها، وهى فى هذا الموضع تتقدم المحراب، وتحيط بالمنبر، أما إذا وجدت فى الصحن فهى حتما تقع فى مواجهة المحراب أمام المحراب الخشبى الذى يقع على محور

المحراب الرئيسى، ويمكن أن تركب المقصورة ملاصقة بجدار القبلة على جانبى المحراب[١٩].

وفيما يتعلق بنشأة المقصورة فقد تقدم أن أول من عملها الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، والواقع أن المؤرخين اختلفوا حول نشأة ونسبة هذا النوع من المقاصير، فمنهم من نسبها إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه كما تقدم، ومنهم من نسبها إلى الخليفة معاوية[٢٠] بن أبى سفيان، ومنهم من نسبها إلى والى العراق زياد بن أبيه، ونسبها آخرون إلى الخليفة مروان بن الحكم، وتفصيل ذلك فيما يتعلق بالخليفتين عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان، فقد أورد ابن النجار، كما أورد السمهودى[٢١] نقلا عن ابن زبالة وابن شبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن أول من أنشأ المقصورة بلبن هو عثمان بن عفان رضى الله عنه وأنه كانت فيه كوى ينظر الناس منها إلى الامام، وأن عمر بن عبد العزيز هو الذى جعلها من ساج حين بنى المسجد، كما أورد السمهودى[٢٢] رواية أخرى تفيد أن أول من اتخذ المقصورة فى المسجد هو معاوية بن أبى سفيان وذلك نقلا عن شرح مسلم للنووى، ويتفق هذا الرأى وما ذكره ابن الأثير، وقد أورد البلاذرى أن زياداً هو أول من اتخذها فى مسجد البصرة، وذلك نقلا عن الوليد بن هشام بن قحذم، حيث قال «لما بنى زياد المسجد جعل لصفة المقدمة خمس سوارٍ وبنى منارته بالحجارة، وهو أول من عمل المقصورة»[٢٣]، وذكر بعض المؤرخين أن الخليفة مروان بن الحكم يعد أول من أحدثها، فقد أورد السمهودى «وروى يحيى هذا كله فى زيادة عثمان رضى الله عنه، ثم روى فى زيادة الوليد. . . أول من أحدث المقصورة فى المسجد مروان بن الحكم، بناها بالحجارة المنقوشة، وجعل لها كوى[٢٤].

ويعلق محمد محمد الكحلاوى على الروايات التاريخية السابقة قائلا أن الدافع الأمنى هو الذى دفع الخلفاء لصناعة مثل هذا النوع من المقاصير وذلك استناداً إلى ما أصاب الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مقتله وهو قائم يصلى فى المسجد، ويرى أن الحجج التى أوردها المؤرخون قد تساوت حول كل من الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ومعاوية بن أبى سفيان ومروان بن

الحكم، إلا أن هناك حقيقة أخرى وردت فى نص لابن الأثير فحواها أن صحابيًا يدعى السائب بن حباب قد شغل وظيفة من قبل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وهى وظيفة صاحب المقصورة، وجعل له فيها راتبًا شهريًا يقدر بدينارين وعلى هذا يضيف محمد محمد الكحلاوى أن السائب بن حباب يعتبر هو أول من شغل وظيفة صاحب المقصورة، حيث لم يأت المؤرخون بذكر واحد قد تولى هذه الوظيفة، بل ولم يرد اسم الوظيفة نفسها لافى أيام الخليفة معاوية بن أبى سفيان، ولا فى أيام الخليفة مروان بن الحكم، مما يرجح نسبة المقصورة إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فى عام ٢٩هـ/ ٦٤٩م[٢٥].

وفى ذلك نقل السمهودى «أن عثمان بن عفان أول من وضع المقصورة من لبن، واستعمل عليها السائب بن خباب، وكان رزقه دينارين فى كل شهر»[٢٦].

وقد أوضح الفقهاء رأى الدين فى اتخاذ المقاصير للصلاة، فقد أجمعوا على أنها لم تكن على عهد رسول الله ﷺ، وإنما أحدثها الخلفاء بسبب الخوف على أنفسهم، وأفتوا بأن اتخاذها فى المسجد مكروه لأنها تفرق الصفوف وتحول دون التمكن من رؤية الإمام وحكمها حكم المنبر لقطعها الصف الأول، مما دفع الخليفة العباسى المهدى إلى أن يأمر ولاته فى عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م، برفع المقاصير من المساجد وبتقصير المنابر على قدر منبر الرسول ﷺ، وفى هذا يذكر المقريزى «وفى سنة إحدى وستين ومائة أمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الأمصار وتقصير المنابر فجعلت على مقدار منبر الرسول ﷺ ثم أعيدت بعد ذلك[٢٧].

نقش المساجد :

جاء فى إعلام الساجد فيما يتعلق بنقش المساجد «يكره نقش المسجد واتخاذ الشرفات له.. لأنها تشغل القلب..وقال البغوى.. فى الفتاوى فإن كان فيه إحكام فلا بأس فإن عثمان رضى الله عنه بنى المسجد بالقصة والحجارة المنقوشة.. ذكر أبو نعيم فى الحلية حديثا مرفوعا، إذا ساء عمل قوم زخرفوا مساجدهم، وإذا وقف على النقش والتزويق لا يصح على الأصح لأنه منهى عنه.. وقيل يصح لما فيه من تعظيم المسجد وإعزاز الدين والخلاف يقرب من الخلاف فى تحلية المصحف»(٢٨).

وجاء فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة عند ذكر ما يكره فعله فى المساجد وما لا يكره، ومنها نقش المسجد وتزويقه بغير الذهب والفضة، أما نقشه بهما فهو حرام، وهذا الحكم متفق عليه بين الشافعية والحنابلة»(٢٩).

وجاء أيضا «المالكية قالوا: يكره نقش المسجد وتزويقه، ولو بالذهب والفضة سواء كان ذلك فى محرابه أو غيره كسقفه وجدرانه، أما تجصيص المسجد وتشييده فهو مندوب الحنفية قالوا: يكره نقش المحراب وجدران القبلة بجص ماء ذهب إذا كان النقش بمال حلال لا من مال الوقف.. ولا يكره نقش سقفه وباقى جدرانه بالمال الحلال المملوك وإلا حرم، ولا بأس بنقشه من مال الوقف إذا خيف ضياع المال فى أيدى الظلمة أو كان فيه صيانة للبناء، أو فعل الواقف مثله»(٣٠).

والواقع أن عمارة المسجد فى عهد الرسول ﷺ كانت تتسم بالبساطة الشديدة كما تقدم شأنها فى ذلك شأن عمارة مساكنه ﷺ التى جاءت كما يذكر ابن النجار «على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل»(٣١). ونلمس بوضوح هذه الفلسفة فى بساطة الأسلوب المعمارى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله

عنه وهو الأسلوب الذى يتضح جليًا من خلال ما أورده البخارى ونصه «وأمر عمر ببناء المسجد وقال أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس[٣٢]، غير أنه فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه تطور الفكر الإسلامى المعمارى، حيث رأى المسلمون ضرورة أن تضاهى العمارة الإسلامية عامة والدينية خاصة من الناحيتين المعمارية والزخرفية آثار الأمصار العريقة فى المدنية، خاصة وأن المسلمين هم سادة البلاد وحكامها.

جاء فى إعلام الساجد فيما يتعلق بنقش المسجد «قال ابن عباس لتزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى»[٣٣].

ويتضح هذا الفكر الإسلامى جليًا عندما أرسل والى الشام معاوية بن أبى سفيان إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فى عام ٢١هـ/ ٦٤٢م يستأذن فى إعادة بناء المساجد وتطوير عمارتها لإخراجها من طور البساطة إلى مظهر الفخامة والجلال حتى تضاهى الآثار المسيحية واليهودية فى الشام فأذن له الخليفة عثمان بذلك[٣٤].

ونلحظ جليًا فلسفة معاوية بن أبى سفيان التى تتمثل فى إظهار عز الإسلام فى موقفه مع الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما أورده الطبرى ونصه «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية فى موكب يتلقاه، وراح إليه فى موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح فى موكب، وتغدو فى مثله.. قال يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزا[٣٥].

مما تقدم يتضح أن عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه يعد البداية الحقيقية لتطور الفن المعمارى الإسلامى من كافة الجوانب، قال ابن النجار «وقال جابر بن عبد الله: وكان أول من خلق المسجد عثمان بن عفان رضى الله عنه»[٣٦]. وجاء فى إعلام الساجد «واستجد بعض السلف تخليق المساجد بالزعفران والطيب، وروى عنه ﷺ فعله»[٣٧].

تخطيط المسجد النبوى فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه:

يذكر فريد شافعى أنه من المحتمل أن يكون الخليفة عثمان رضى الله عنه قد أضاف أيضا ظلات أخرى إلى جوانب الفناء، ومن ثم تكامل تخطيط المسجد وأصبح النموذج الرئيسى الذى شيدت عليه المساجد الجامعة فى العالم الإسلامى، وهو التخطيط الذى عرف بالصحن والظلات(٣٨). (شكل ٣٤).

ويذكر الشهرى أن المسجد النبوى بقى بعد زيادة الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على ما كان عليه فى عهد الرسول ﷺ بظلتين إحداهما جنوبية والأخرى شمالية، حيث يشير إلى أنه لم يجد فى المصادر التى اطلع عليها ما يشير إلى أنه أحدث للمسجد ظلات جانبية فى الجانبين الشرقى والغربى، ويضيف أن ضيق المسجد قبل التوسعة وطريقة توزيع الأبواب التى استحدثها الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المسجد، وهى باب السلام، وباب النساء، وباب فى مؤخر المسجد مع الابقاء على الباب الذى كان فيه فى عهد الرسول ﷺ، وكذلك باب الرحمة، وباب آل عثمان المعروف بباب جبريل الذى لم يتغير عن موضعه فى هذه العمارة على كثرة المصلين الأمر الذى أوجب فتح هذه الأبواب الستة، وإذا كانت الظلتان الجانبيتان لم نجدهما فى عهدى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما كما أورد فريد شافعى فى المخطط الذى وضعه للمسجد النبوى، فإن الحاجة إليهما بدأت من ذلك الوقت، الذى بدأت فيه العناصر المعمارية الجديدة تظهر فى المسجد تباعًا، ومنها السترة التى بنيت فوق سطح المسجد(٣٩).

ويذكر حسن الباشا أن تصميم المسجد النبوى بالمدينة صار نموذجًا للمساجد الجامعة التى أسسها المسلمون فى المدن الجديدة التى شيدوها عقب الفتوح الإسلامية مثل مسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد عمرو بالفسطاط ومسجد عقبة بن نافع بالقيروان وغيرها، ومما يدعو إلى التساؤل أن مسجد الكوفة قد صمم عند إعادة بنائه فى سنة ٥١هـ/ ٦٧١م على يد زياد بن أبيه على هيئة

صحن مستطيل تحف به ظلات أربع أطولها ظلة القبلة، ولما كان المسلمون يحرصون على الاقتداء فى تصميم مساجدهم بمسجد النبى ﷺ فكيف استعمل هذا التصميم فى مسجد الكوفة مع أنه لم يصلنا معلومات تدل على أن مسجد النبى ﷺ اتخذ هذا التصميم قبل عمارة الوليد بن عبد الملك؟ أمن المحتمل انه كان قد أجرى فى المسجد النبوى عمارة فى خلافة على بن أبى طالب، كان من جرائها اتخاذ المسجد هذا التصميم، ومن ثم اقتدى به عند إعادة بناء مسجد الكوفة فى سنة ٥١هـ أم أن التصميم الجديد لمسجد الكوفة قد تأثر بالمسجد الحرام بعد أن زوده عثمان بن عفان بأروقة كما سبق ذكره؟(٤٠).

والواقع أنه من خلال ما تقدم يمكن القول أن المسجد النبوى كان يشتمل على صحن وظلة للقبلة، وهى الظلة الأولى أو الشمالية التى كانت تتجه إلى بيت المقدس، ثم أصبح المسجد يشتمل على صحن وظلتين بعد تحويل القبلة إحداهما فى الجهة الشمالية، وهى الظلة الأولى أو القديمة التى كانت تتجه إلى بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى، والثانية فى الجهة الجنوبية، وهى الظلة الثانية أو الجديدة التى تتجه إلى مكة المكرمة قبلة المسلمين الجديدة، وذلك فى السنة الثانية للهجرة، وتوفى الرسول ﷺ والمسجد على هذا النمط من التخطيط، وعلى الرغم من أن المسجد تعرض للزيادة فى عهدى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما من منطلق أن الرسول ﷺ سن الزيادة فى مسجده الشريف إذا دعت الضرورة إلى ذلك حيث قال ابن النجار كما تقدم» وروى أهل السير أن عمر رضى الله عنه قال: لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنى أزيد فى المسجد» مازدت فيه «إلا أن المسجد لم يشتمل على ظلتين جانبيتين فى جانبيه الشرقى والغربى بواقع ظلة فى كل جانب ويعزى هذا فى اعتقادى إلى أنه لم تكن هناك ضرورة لوجود هذه الظلة فى الجهتين الشرقية والغربية فى العصر الراشدى، ومن ثم ظل المسجد على هذا التخطيط من صحن وظلتين، ومن المرجح أن مساجد اليمن التى شيدت فى عهد الرسول ﷺ وهى مساجد صنعاء وذمار والجند التى تقدم ذكرها كانت تشتمل على صحن وظلة للقبلة على الرغم

من أنها شيدت بعد تحويل القبلة واشتمال المسجد النبوى على صحن وظلتين، حيث جاءت مساجد الأمصار الإسلامية بعد ذلك عبارة عن صحن وظلة للقبلة، وهو الأمر الذى يتضح جليًا فى مسجد البصرة ١٤هـ/ ٦٣٥م، ومسجد الكوفة ١٧هـ/ ٦٣٨م، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط، ٢١هـ/ ٦٤٢م، حيث يعد هذا التخطيط بمثابة طراز المسجد فى تلك الفترة الزمنية من الحضارة الإسلامية، وهو الأمر الذى تأكد لنا من خلال ما أورده الطبرى وتقدم ذكره عند ذكر مسجد البصرة، ومسجد الكوفة، حيث قال «وبنى ظلة فى مقدمه، ليست لها مجنبات ولا مواخير.. وكذلك كانت المساجد ما خلا المسجد الحرام، فكانوا لا يشبهون به المساجد تعظيما لحرمته». مما يدل على أن الأساس فى عمارة المسجد كان يتمثل فى ظلة القبلة والصحن وهو التخطيط الأساسى الذى جاء عليه المسجد النبوى بالمدينة قبل تحويل القبلة، حيث اعتبرت ظلة القبلة فى عمارة المسجد فى الجهة الشمالية هى بيت الصلاة، ثم بعد تحويل القبلة شيدت ظلة جديدة للقبلة فى عمارة المسجد فى الجهة الجنوبية، واعتبرت هى بيت الصلاة فأصبحت الظلة الأولى أو القديمة غير ذات أهمية أو ذات أهمية ثانوية، أو أنها هدمت لعدم الحاجة إيها ضمن عمارة تعرضت فيها جدران المسجد كلها للتغيير عقب تحويل القبلة وهو احتمال كما يذكر الشهرى وتقدم ذكره له وجاهته، ومن ثم لم تأخذ المساجد التى تقدم ذكرها فى بلاد اليمن ثم فى البصرة، وبيت المقدس والكوفة والفسطاط تخطيطًا من صحن وظلتين، بل أخذت تخطيطًا من صحن وظلة للقبلة على غرار ظلة المسجد النبوى الأولى أو الثانية.

أما فيما يتعلق بمسجدى البصرة والكوفة (شكل ٣٥) فى عهد والى العراق زياد بن أبيه وخلافة معاوية بن أبى سفيان فقد اشتمل تخطيطهما عقب عمارة زياد على صحن أوسط مكشوف وأربع ظلات تحيط به من جهاته الأربع بواقع ظلة فى كل جهة وبذلك تكامل تخطيط المسجد فى العالم الإسلامى من صحن وأربع ظلات، أو من صحن وأربعة أروقة بحيث تكون ظلة القبلة أكبر هذه الظلات من حيث الاتساع بامتداد جدار القبلة والعمق من جدار القبلة إلى

الصحن، ومن المرجح أن زيادًا رأى ضرورة أن يشتمل المسجد على ظلتين جانبيتين فى الجهتين الشرقية و الغربية، ثم ظلة مقابلة لظلة القبلة تربط بين الظلتين الجانبيتين لاستيعاب أعداد المصلين المتزايدة، وأن تحيط هذه الظلات بصحن مكشوف لتكتسب من خلاله ومن خلال وجود المداخل والنوافذ والفتحات التهوية والإضاءة، ومن ثم اكتملت عمارة المسجد فى مدينتى البصرة والكوفة فى ولاية زياد وخلافة معاوية بن أبى سفيان.

أما فيما يتعلق بالمسجد النبوى خلال الفترة من عمارة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى عمارة الوليد بن عبد الملك فى العصر الأموى (شكل ٣٦، ٣٧) فقد ظل كما يذكر الشهرى محتفظا بعمارة الخليفة عثمان رضى الله عنه، حيث لم يشهد خلالها من الأعمال المعمارية إلا ما قام به مروان بن الحكم، الذى بلط حوله بالحجارة، وذلك فى خلافة معاوية بن أبى سفيان(٤١).

والواقع أن المدينة المنورة، توالت عليها أحداث هامة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وولاية الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهى الأحداث التى انتهت بإعلان الدولة الأموية، وخلافة معاوية بن أبى سفيان، ومن ثم انتقال عاصمة وحاضرة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق، حيث بقيت المدينة المنورة مجرد مدينة روحية.

مما تقدم يتضح أن تخطيط المسجد قد اكتمل فى مدينتى البصرة والكوفة قبل أن يكتمل فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة، إذ ليس من الضرورى أن يكتمل هذا التخطيط فى المسجد النبوى ثم نجده فى مسجدى البصرة والكوفة، خاصة فى ضوء الأحداث السياسية التى مرت بها المدينة المنورة من جهة والعالم الإسلامى من جهة أخرى، وهى الأحداث التى ترتب عليها انتقال الخلافة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الشام ثم الاهتمام الكبير من قبل الأمويين بالسيطرة على مصر والعراق وإحداث نهضة عمرانية فيهما هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تكن هناك ضرورة لاشتمال المسجد النبوى على ظلتين جانبيتين خاصة فى ضوء

الأحداث السياسية عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، كما لم تشر المصادر التاريخية التى بين أيدينا إلى إضافات معمارية خلال تلك الفترة فى المسجد النبوى.

أما فيما يتعلق بتأصيل هذا التخطيط الذى وجد فى مسجدى البصرة والكوفة قبل المسجد النبوى، وهو التخطيط الذى يتمثل فى الصحن والظلات الأربع فمن المرجح أن زيادًا تأثر فى تخطيطه لمسجدى البصرة والكوفة بعمارة المسجد الحرام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقد كان المسجد الحرام على عهد رسول الله ﷺ والخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه من غير جدار يحيط به، وكانت الدور تحدق به، ثم شيد المسجد وأصبح يشتمل على جدار يحيط به فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام ١٧هـ /٦٣٨م، ثم قام الخليفة عثمان بن عفان بعمارته فى عام ٢٤هـ/ ٦٤٤م، وقيل فى عام ٢٦هـ/ ٦٤٦م، حيث قام بتوسيعه وشيد المسجد والأروقة، وكان أول من اتخذها[٤٢].

قال الزركشى «ثم لما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه اشترى دورًا أخر ووسعه أيضًا، وبنى المسجد والأروقة»[٤٣]. فاكتمل الشكل النهائى لتخطيط الحرم المكى، وإذا كان الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد أحاط المسجد الحرام بالأروقة من جوانبه الأربعة فإن هذا ربما يدعم أنه لم ير ضرورة لأن يشتمل المسجد النبوى بالمدينة المنورة على ظلات أو أروقة جانبية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ربما أثر هذا التخطيط بعد ذلك على عمارة مسجدى البصرة والكوفة فى عهد زياد بن أبيه فتكامل تخطيطهما من صحن تحيط به ظلات أو أروقة فى جوانبه الأربعة.

هوامش وتعليقات الفصل الرابع

(١) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥٠١ .

(٢) البخارى: صحيح، جـ١، ص ١٢١ .

(٣) الزركشى، إعلام الساجد، ص ٢٢٥ .

(٤) ابن النجار: الدرة، ص ١٧٤ .

(٥) يحيى بن الحسين. غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، جـ١، ص ٨٨ .

(٦) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٤٧ . جعفر بن السيد إسماعيل المدنى البرزنجى: نزهة الناظرين فى تاريخ مسجد سيد الأولين والآخرين، تحقيق أحمد سعيد بن سلم، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م، ص ٣٧ . مزيد من التفاصيل انظر: محمد محمد الكحلاوى: مقاصير الصلاة فى العصر الإسلامى، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٩م، ص ص ٢٠٣-٢١١ .

(٧) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥٠٢ .

(٨) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥٠٢ .

(٩) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥٠٥ .

(١٠) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥٠١ .

(١١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٧٠ .

(١٢) يعد هذا الاصطلاح من الألفاظ التى أطلقت على المئذنة قال ابن منظور «المئذنة» موضع الأذان للصلاة وقال اللحيانى: هى المنارة يعنى الصومعة. ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص ٥٣ . ، Creswell: the Evolution of the Minaret, P. 1, Abu seif (D.B.): the Minarets of Cairo, The American University in Cairo press, p. 11., Bloom, Jonathan: Minaret symbol of Islam, published by Oxford universi-. ty press, pp. 29-31.

(١٣) الطبرى: تاريخ الطبرى، مج٢، ص ٦١٧ .

(١٤) عبد الحى الكتانى: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، بيروت، ص ٧٩ .

(١٥) البلاذرى: فتوح، ص ٣٤٢ .

(١٦) الزركشى: إعلام، ص ٣٤٢ .

(١٧) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، جـ٥، مادة قصر، ص ص ٣٦٤٦-٣٦٤٧ .

(١٨) محمد محمد الكحلاوى: مقاصير الصلاة فى العصر الإسلامى، ص ص٢٠٧-٢٠٨ .

(١٩) محمد محمد الكحلاوى: مقاصير الصلاة، ص ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٢٠) ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص ١٢٧ .

(٢١) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥١٠ .

(٢٢) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥١٢ .

(٢٣) البلاذرى: فتوح، ق٢، ص ٢٤٧ .

(٢٤) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ,٥١١، محمد محمد الكحلاوى: مقاصير، ص ص ٢٠٩-٢١٠ .

(٢٥) محمد محمد الكحلاوى: مقاصيرة الصلاة، ص ٢١٠ .

(٢٦) السمهودى: وفاء الوفا، جـ٢، ص ٥١١ .

(٢٧) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٥١ . ، محمد محمد الكحلاوى: مقاصير الصلاة، ص ص ٢١٠-٢١١ .

(٢٨) الزركشى: اعلام، ص ص ٣٣٥-٣٣٧ .

(٢٩) الجزيرى: الفقه: ص ٢٢٣ .

(٣٠) الجزيرى: الفقه، ص ص ٢٢٣-٢٢٤، هامش ٢ .

(٣١) ابن النجار: الدرة: ص ١٥٢ .

(٣٢) البخارى: صحيح، مج١، جـ١، ص ١٢١ . ، سعاد ماهر محمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، جـ١، ص ٣٨ .

(٣٣) الزركشى، إعلام، ص ٣٣٧ . واللام فى قوله لتزخرفنها لام القسم والفعل بعدها جواب القسم وقوله كما زخرفت اليهود والنصارى أى بيعهم وكنائسهم حين أضاعوا

الدين، وعولوا على الزخارف والتحسين. محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ديسمبر، ١٩٧٩م، ص ٢٠ .

(٣٤) محمد كرد على: خطط الشام، دمشق ١٣٤٣هـ، ١٩٢٥م، جـ٦، ص ص ٤٥-٤٦ .

(٣٥) الطبرى: تاريخ، مج٣، ص ٢٦٥ .

(٣٦) ابن النجار: الدرة: ص ١٦٢ .

(٣٧) الزركشى: إعلام، ص ٣٣٨ .

(٣٨) فريد شافعى: العمارة العربية، ص ٢٣٧ .

(٣٩) محمد هزاع: عمارة المسجد النبوى، ص ٨٧ .

(٤٠) حسن الباشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، ص ١٢٢ .

(٤١) محمد هزاع: عمارة المسجد النبوى، ص ١٠٥ .

(٤٢) الزركشى: إعلام، ص ٥٧، حسن الباشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص ١١٣، أحمد رجب محمد على: المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه فى الفن الإسلامى، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ص ٣٤-٣٥ .

(٤٣) الزركشى: إعلام، ص ٥٧ .